



ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne

AnIsl 40 (2006), p. 139-153

Šarqī Al-Rizqī

المقرنات الحمّادية ووجهات انتشارها المحتملة في منطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط.
Al-muqarnasāt al-ḥammādiyya wa wighāt intišārihā al-muhtamala fī mintaqat al-ḥawd al-ğarbī min al-baḥr al-abyad al-mutawassit.

Conditions d'utilisation

L'utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l'éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l'éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

- | | | |
|---------------|--|--|
| 9782724711400 | <i>Islam and Fraternity: Impact and Prospects of the Abu Dhabi Declaration</i> | Emmanuel Pisani (éd.), Michel Younès (éd.), Alessandro Ferrari (éd.) |
| 9782724710922 | <i>Athribis X</i> | Sandra Lippert |
| 9782724710939 | <i>Bagawat</i> | Gérard Roquet, Victor Ghica |
| 9782724710960 | <i>Le décret de Saïs</i> | Anne-Sophie von Bomhard |
| 9782724710915 | <i>Tebtynis VII</i> | Nikos Litinas |
| 9782724711257 | <i>Médecine et environnement dans l'Alexandrie médiévale</i> | Jean-Charles Ducène |
| 9782724711295 | <i>Guide de l'Égypte prédynastique</i> | Béatrix Midant-Reynes, Yann Tristant |
| 9782724711363 | <i>Bulletin archéologique des Écoles françaises à l'étranger (BAEFE)</i> | |

شرقى الرزقى

المقرنـسات الحـمـاديـة وـوجهـات انتـشارـها المحـتمـلة في منـطـقة الـحـوض الـغـربـي منـ الـبـحـر الـأـبـيـض الـمـتوـسـط

تبانين آراء وأحكام دارسى العمارة الإسلامية وفنونها الزخرفية بشأن المقرنـسات الحـمـاديـة في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين ٦-٥ هـ / ١٢-١١ م، تبـانـاً واضـحاً إلى حد التناقض الصارـخـ. فـمنـهـمـ منـ فـنـدـ حـقـيقـةـ وجودـ المـقرـنـسـاتـ الحـمـاديـةـ،ـ تقـنـيـداـ قـاطـعاـ شـأنـ البـاحـثـ العـراـقـيـ يـاسـرـ الطـبـاعـ^١ـ.ـ وـمـنـهـمـ منـ آـثـرـ التـرـيـثـ،ـ وـعـدـمـ التـسـرـعـ فيـ إـبـادـهـ الأـحـكـامـ القـاطـعةـ،ـ وـتـنـصـيـلـ الـاـكـتـنـاءـ بـتـصـرـيـحـاتـ عـامـةـ،ـ مـفـتوـحةـ عـلـىـ كـلـ اـحـتمـالـ وـارـدـ مـسـتـقـبـلاـ كـالـفـرنـسـيـ مـيـشـيلـ إـيكـوـشـارـ،ـ الـذـيـ يـقـولـ بـالـحـرـفـ الـواـحـدـ:ـ «ـقـدـ نـجـدـ فـيـ قـصـورـ الـقلـعـةـ الحـمـاديـةـ عـيـنـاتـ مـهـمـةـ،ـ إـلـاـ أـنـ ضـحـالـةـ نـشـرـهـاـ حـالـتـ دونـ درـاستـهـ»^٢ـ.ـ وـمـنـهـمـ منـ كـانـ لـهـ إـطـلـاعـ حـسـنـ بـعـخـاـيـاـ الـعـمـارـةـ الحـمـاديـةـ بـشـمـالـ إـفـرـيـقيـاـ،ـ فـأـقـرـرـ وـجـودـ عـنـصـرـ المـقرـنـسـاتـ بـمـدـيـنـةـ الـقـلـعـةـ (ـشـكـلـ ١ـ)ـ منـ غـيرـ أـنـ يـوـثـقـ مـوـقـعـهـ بـأـدـلـةـ دـامـغـةـ،ـ مـكـتـفـيـاـ فـيـ ذـلـكـ بـهـاـ يـوـحـىـ بـهـ حـسـهـ الشـخـصـيـ،ـ مـثـلـ اللـوـاءـ الفـرنـسـيـ لـيـونـ دـوـ بـيلـ^٣ـ،ـ وـالـبـاحـثـ الـلـامـعـ جـورـجـ مـارـسـيـهـ^٤ـ،ـ وـهـنـرىـ تـيرـاسـ^٥ـ،ـ وـالـبـاحـثـ الإـسـبـانـيـ فـيـرـنـونـدـازـ پـوـيرـتـاسـ^٦ـ.

وـمـنـهـمـ منـ ذـهـبـ إـلـىـ أـبـعـدـ مـنـ ذـلـكـ بـكـثـيرـ،ـ شـأنـ البـاحـثـ الفـرنـسـيـ،ـ مـتـوفـيـ فـيـ الـآـوـنـةـ الـأـخـيـرـةـ لـوـسـيـانـ جـوـلـقـانـ،ـ الـذـيـ بـذـلـ قـصـارـ جـهـدـهـ فـيـ سـبـيلـ اـسـتـقـطـابـ اـهـتـمـامـ جـمـهـورـ الـمـخـصـصـيـنـ فـيـ مـجـالـ الـمـقـرـنـسـاتـ الـإـسـلـامـيـةـ صـوبـ مـكـتـشـفـاتـهـ الـأـثـرـيـةـ

L. de Beylie, *La kalaa des Beni-Hammad: une capitale berbère dans l'Afrique du Nord au XI^e siècle*, Leroux, Paris, 1909, p. 39.

G. Marçais, *L'architecture musulmane d'Occident (Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et la Sicile du IX^e au XII^e siècle)*, Arts et métiers graphiques, Paris, 1954, p. 103.

H. Terrasse, *La mosquée Al Qarawiyin à Fès*, Éditions Klincksieck, Paris, 1968, p. 32.

A. Fernandez Puertas, «Mukarnas», *EI² VII*, 1993, p. 500 -501.

٣ حول مفهوم مصطلح «المقرنـسـاتـ»،ـ وـمـعـالـجـةـ أـبـرـزـ إـشـكـالـاتـهـ التـارـيخـيـةـ،ـ وـالـلـغـوـرـيـةـ،ـ وـالـلـوـظـيفـيـةـ،ـ أـنـظـرـ الفـصـلـ التـمـهـيدـيـ منـ رسـالـةـ الـبـاحـثـ:ـ «ـتـطـوـرـ المـقـرـنـسـاتـ فـيـ عـارـةـ الـمـغـرـبـ إـلـيـهـ مـعـ الـقـرـنـيـنـ ٧-٥ـ هـ / ١٣-١١ـ مـ»،ـ

٤ رسـالـةـ ماـچـسـتـيرـ (ـغـيرـ مـنـشـوـرـةـ)،ـ مـعـدـةـ تـحـتـ إـشـرافـ الـأـسـتـاذـ الـدـكـتـورـ محمدـ عبدـ العـزـيزـ لـعـرـجـ،ـ وـالـدـكـتـورـ عـقـابـ مـحمدـ الـطـيـبـ،ـ معـهـدـ الـأـثـارـ،ـ جـامـعـةـ الـجـزاـئـرـ،ـ ٢٠٠٠ـ مـ.

٥ T. Yesser, «The Muqarnas Dome; its Origin and Meaning», *Muqarnas* 5, E.J. Brill Leiden, 1985, p. 61-74.

٦ M. Écochard, *Filiation de monuments grecs, byzantins et islamiques. Question de géométrie*, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1977, p. 61.

الرائدة بخرايب القلعة الحمادية (شكل ٢) خلال الفترة المتقدمة بين سنتي ١٩٤٩-١٩٦٢ م^٧؛ ومؤرخ الفن الإسلامي الكبير أولج جرابار الذى اعتبر من جهته أنّ القلعة الحمادية لا تنطوى على بقايا المقرنسات فحسب، وإنما تتعداها إلى تبؤتها مرتبة المركز الجھوي، المقابل لمراكز شرق إيران بمشرق الخلافة الإسلامية في مجال ابتكار المقرنسات، والعمل على ترويجها بالمناطق المحاذية لها في بلاد الغرب الإسلامي، وجنوب القارة الأوروبية على وجه الخصوص^٨.

ومن ثم يتبدّل للأذهان إثارة الأسئلة الآتية: لماذا كلّ هذا التجاذب في الرأى حول حقيقة المقرنسات الحمادية؟! كيف غاب أمرها على مؤرّخى المقرنسات الإسلامية في أعمالهم المشححة الشاملة لمختلف أنحاء أراضي الخلافة، شأن أعمال الألمانيان چين روزنتال^٩، وإيموند پوتى^{١٠}، والفرنسي هوت كور^{١١}، والإنجليزى جونتان بلوم^{١٢}، والعراقي حيدر كامل^{١٣}، والألمانية إيفون دولد سومبلينيوس^{١٤} على سبيل الذكر لا التّخصيص والحصر؟ أين مكان حفظ بقايا المقرنسات الحمادية اليوم بغرض الإطلاع عليها مجدّداً، وفحصها عن قرب، وفضّل الخلاف بتأكيد الأمر، أو نفيه بشكل مطلق؟ وإذا ما سلّمنا جدلاً بثبوت وجود المقرنسات في المباني الحمادية، فهل من السهل التسلّيم بلعبي دور المركز الجھوي على الصعيد الإقليمي في مجال ابتكار وترويج المقرنسات بمنطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط بأسره، وهي المدينة العسكرية المنيعة، المستندة إلى جبل شاهق على ارتفاع ألف وأربعين متر عن معدل سطح البحر؟! ماذا لو كان هذا الرأى الأخير صائباً في مزاعم طرحة، فهل من تداعيات لمراجعة ما تقدّم تقريره إلى حدّ الآن بخصوص المقرنسات الإسلامية؟

١. تنبّهات هامة حول المقرنسات الحمادية وبيان مواضع التقاطها وأماكن حفظها

قبل الشروع في تقديم، وتجمّيع، ومناقشة أبرز البقايا الأثرية، المتوفرة اليوم حول المقرنسات الحمادية، والمحفوظة حالياً بكلّ من متحف سرّتا بقسطنطينة (شكل ١١)، ومتحف سطيف (شكل ٥) الوطنيين، ومن المفروض متحف الآثار

E. Pauty, «Contribution à l'étude des stalactites», ^{١٠} *BIFAO* 29, 1929, p. 129-153.

L. Hautecœur, «De la trompe aux muqarnas», *La gazette des beaux arts* 6, p. 27-51.

M. Jonathan Bloom, «The Introduction of the Muqarnas in Egypt», *Muqarnas* 5, 1985, p. 21-28.

^{١١} كامل حيدر، *الخصائص التخطيطية للمقرنسات*، سلسلة العمارنة العربية الإسلامية، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م.

^{١٢} شرقى الرزقى، «فصل حساب سطح المقرنس للرياضي الإيرانى جشید غیاث الدين الكاشى (دراسة وتحقيق)»، محاضرة ألقيت في أشغال الملتقى المغاربى الثالث للمخطوط، المنعقد بالجزائر العاصمة أيام ٢٦-٢٨ نوفمبر ٢٠٠٥ (تحت الطبع).

L. Golvin, «Note sur quelques fragments de plâtre trouvés récemment à la Qal'a de Banû Hammad», *Mélanges d'histoire et d'archéologie d'occident musulman (Hommage à Georges Marçais)* 2, Imprimerie du gouvernement général, Alger, 1957, p. 75-93; *id.*, «Fouille archéologique à la Qal'a de Beni Hammad», *Bulletin de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, Éditions Klinckseick, Paris, 1963, p. 392; *id.*, «Les plafonds à Muqarnas de la Qal'a des Banû Hammad et leur influence possible sur l'art de la Sicile à la période normande», *Romm* 17, 1974, p. 63-69.

^{١٣} O. Grabar, *The Alhambra*, Harvard University, Cambridge, Massachusetts, 1978, p. 175.
^{١٤} J. Rosenthal, *Pendentifs, trompes et stalactites dans l'architecture orientale*, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1928.

القديمة بالجزائر العاصمة أيضاً (شكل ٦)^{١٥}. وكذا جلة الصور التي خلفها مكتشفها لوسيان جوللان في مؤلفاته المتعددة (الأشكال ٧ - ١٠)، يجدر بنا المقام، التبّيه إلى ثلاث ملاحظات في متنها الأهمية:

أولاً: أنّ هذا المجهود من البحث، والتّقصي العلمي، ما يزال جزئياً في نتائجه، ييد أنّ قصر النّجيم، أو الكوكب (شكل ٢) ما يزال يكراً، ولم تطله أشغال الحفر الأثري بعد. وهو الشّيء نفسه يقال على العاصمة الإدارية الحمّادية الأولى مدينة أشير بعين بوسيف (شكل ١)، والتي سكنها الحمّاديون قبل أن ييتروا مدينة القلعة، مدة ثلاثة عشر سنة، وتحديداً خلال الفترة المتعددة بين ٣٦٥-٩٨٤هـ / ١٠٠٧-١٧٤ م على وجه التّقريب^{١٦}. والتي قد تحدث لنا مفاجأةً سازةً حول هذا الموضوع في غضون الحفريات المستقبلية بها^{١٧}. خلافاً لمدينة بجاية ثالث عاصمة للحمّاديين (شكل ١)، والتي - وإن كانت لم تُحفر بعد - إلا أنها تبقى بعيدة، ومتّأخرة زمانياً عن الجدل العلمي القائم حالياً حول تاريخ، ومكان ظهور المقرننسات الإسلامية بصفة عامة، والقبة المقرننسة منها بصفة خاصة.

ثانياً: أنّ هذه العينات الواردة في هذه الدراسة، يرجح فرضية عدم الإطلاع عليها من قبل مؤرّخى المقرننسات في العالم؛ وأنّ كلّ ما تَمَ الإطلاع عليه بالنسبة لهم في أحسن الظروف هو نموذج الشّكل ٥ والشّكل ٦ حيث تفضل الباحث چورچ مارسييه بنشرهما في بعض أعماله الهامة حول الآثار الإسلامية بشمال إفريقيا^{١٨}. وكذا نموذج الشّكل ٧ الذي تفضل تلميذه لوسيان جوللان بنشره في كتابه القِيم حول نتائج حفرياته الأولى والثانية بقلعة بنى حمّاد^{١٩}.

إذ كرر هذا الباحث ما نشره أستاذه من قبل بخصوص المقرننسات الحمّادية، إضافة إلى عرضه تلك القطعة الهامة من جملة بقايا المقرننسات التي التقاطها عام ١٩٥٦ من أقضاض قصر السلام (شكل ٣ والأشكال ٧-١٠). وقد أعاده مارسييه على تصور موضعها الصّحيح في نسيج المقرننسات الذي كانت تتّبعه هذه الأخيرة (شكل ٧ ب)، بناءً على مقارنتها المُوقّفة بين هذه الأخيرة، وبين مقرننسات الحِيّات الرُّكينة بكنيسة بلاتين التُّورماندية (شكل ٧ ج)، الواقعة بعاصمة جزيرة صقلية، مدينة پالِرم.

ومن ثم أصبحت هذه العينات الثلاث، الشّاهد الوحيد، الدّال على استخدام المقرننسات في تعميق مبانى القلعة الحمّادية على حدّ اعتقاد جمهور مؤرّخى المقرننسات بصفة خاصة، ومؤرّخى الفنون العمارة الإسلامية بصفة عامة؛ فجاءت أحکامهم بشأنها شديدة التّباين، كما سلفت الإشارة.

الوطنية لحماية الآثار، والمتحف الوطني للآثار القديمة، ومركز البحث في عصور ما قبل التاريخ مع مستهل عقد تسعينيات القرن العشرين، إلا أنّ الأقدار لم تكتب لها أن تواصل سبب الأزمة السياسيّة الناجمة عن توقيف المسار الانتخابي عام ١٩٩١م، ودخول البلاد في حُمى العنف السياسي، حيث تعرضت تجهيزات الحفر الأخرى هناك في بحر عام ١٩٩٣ إلى عمل إجرامي، أدى إلى حرق عتاد الحفر، ومعسكر الإقامة، وإتلاف الكثير من البقايا الأثرية التي كانت خزنة في مستودع المعسكر؛ ومنذ ذلك الحين عُلقت الحفريّة إلى يومنا هذا.

G. Marçais, *Poteries et faïences de la Qal'a des Beni Hammad au XI^e siècle*, D. Abraham, Constantine, 1913,
p. 39-40.

L. Golvin, *Recherches archéologiques à la Qal'a des Beni Hammad*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1965, p. 124-125.
^{١٩}

^{١٥} أقصد أنّ هذا المتحف، كان يحفظ العينة الحجرية الوحيدة (شكل ٦)، التي تم العثور عليها من طرف اللواء دو بيل، ومساعده الباحث مارسييه في حفريتها المقامرة عام ١٩٠٨م، إلا أنّ شغلي منصب «محافظ للتّراث الأثري، والمحفظي، والتّاريخي» بذات المتحف، مكلف ب مجرد، وتشين المجموعات الإسلامية، لم يسمح لي بالعثور على هذه العينة. وهو ما يوحى إلى احتمال تحويلها إلى متحف جرينبول، مسقط رأس اللواء دو بيل الذي حُول معه غداة استقلال الجزائر عام ١٩٦٢م كلّ التّحف المهمة التي عشر عليها بالقلعة، وهي الآن محفوظة إما بمتحف الفنون الزّخرفية بباريس، أو بمتحف جرينبول السابق. أو احتمال ضياعها بطريقة ما من المتحف. ولذلك فإنّ دراستها، ستكون مركزة على الصور التي التقاطها لها دو بيل غداة اكتشافها عام ١٩٠٨م، وكذا التّفريع الذي حُصّبها به مارسييه.

^{١٦} شرقى الرّزقى، «تطور المقرننسات»، ص ٨٠.

^{١٧} الواقع أنّ هذا الموقع الأثري عرف تنظيم حفريّة أثرية مشتركة بين الوكالة

ثالثاً: إنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْعِينَاتِ قَدْ تَمَّ نُشُرُ صُورَهَا مِنْ طَرِفِ الْبَاحِثِ جُوْلَشَانَ عَبْرِ مَؤْلَفَتِهِ الْعَدِيدَةِ. فِيْ جَانِبِ تَحْدِثُهِ عَنِ الْعِيَّنَتِيْنِ الَّتِيْنِ التَّقْطُهُمَا دُوَيْلِيْ عَامَ ١٩٠٨ (شَكْل٤ و٦) فِي كِتَابِهِ «أَبْحَاثٌ أَثْرِيَّةٌ فِي قَلْعَةِ بَنِي حَمَادٍ»، نَجَدَهُ قَدْ تَحْدِثُ وَعَرَضَ صُورَ مَقْرَنَسَاتِ قَصْرِ السَّلَامِ (الْأَشْكَالِ ١٠-٧) كَامِلَةً فِي مَقَالَةٍ بِنَيْمٍ بِعِنْوَانِ «عَرَضٌ لِبعْضِ الْقَطْعَاتِ الْجَصِّيَّةِ الْمَلْتَقَطَةِ حَدِيثًا مِنْ قَلْعَةِ بَنِي حَمَادٍ»، الَّذِي نَشَرَهُ سَنَةَ ١٩٥٧ مٌ.^{٢٠} وَفِي ذَاتِ السَّنَةِ أَعْدَادَ نُشُرَ بَعْضُهَا فِي كِتَابِهِ «الْمَغْرِبُ الْأَوْسَطُ خَلَالُ الْعَهْدِ الْزَّيْرِيِّ»^{٢١}، قَبْلَ أَنْ يُعَاوِدَ الْحَدِيثَ عَنْهَا مَرَّةً ثَالِثَةً فِي مُدَاخِلَةٍ، الْقَاهَا سَنَةَ ١٩٦٢ مٌ، حَوْلَ نَتَائِجِ حَفْرِيَّاتِهِ الْأَثْرِيَّةِ الْآخِيرَةِ بِالْقَلْعَةِ. إِلَّا أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ لَمْ يُنْشِرْ لَهَا أَيْمَةً صُورَةً، أَوْ تَفْرِيْغَهُ.^{٢٢} كَمَا نَجَدَهُ قَدْ تَحْدِثُ وَعَرَضَ صُورَ مَقْرَنَسَاتِ قَصْرِ الْمَنَارِ (شَكْل٤ وَشَكْل١١) فِي مَقَالَةٍ خَاصَّةٍ تَحْتَ عِنْوَانِ جَذَابٍ: «السَّقْوَفُ الْمَقْرَنَسَةُ فِي قَلْعَةِ بَنِي حَمَادٍ وَتَأْثِيرُهَا الْمُحْتَمَلُ عَلَى الْفَنِّ الصَّقْلِيِّ خَلَالُ الْعَهْدِ الْنُّورَمَانِيِّ»^{٢٣} قَبْلَ أَنْ يُعِيدَ مَرَاجِعَهُ بَعْضَ آرَائِهِ وَأَحْكَامِهِ السَّابِقَةِ فِي كِتَابِهِ الْأَخِيرِ: «الْمَغْرِبُ خَلَالُ الْقَرْوَنِ الْوَسْطَيِّ»، وَالَّذِي اشْتَرَكَ فِي تَأْلِيفِهِ مَعَ نَخْبَةِ الْعُلَمَاءِ.^{٢٤} وَلَعِلَّ الْأَرْجَحُ فِي كُلِّ هَذَا، أَنَّ جَمِيعَ مَؤْلَفَتِهِ هَذِهِ لَمْ تَقْعُ فِي أَيْدِي مَؤْرِخِيِّ الْمَقْرَنَسَاتِ وَقَتْ صِدْرُهَا عَلَى مَا يَبْدُو، إِذَا مَا اسْتَشَنَّا مَرْجِعَهِ الْآخِيرِ، الَّذِي لَمْ يُورِدْ فِيهِ صُورًا ذَاتَ أَهْمَيَّةٍ هَذِهِ الْمَقْرَنَسَاتِ وَهُوَ مَا يَفْسِرُهُ بِوْضُوحٍ غِيَابُ الْمَقْرَنَسَاتِ الْحَمَادِيَّةِ فِي مَؤْلَفَاتِ مَؤْرِخِيِّ الْمَقْرَنَسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدِيمًاً وَحَدِيثًاً.

عرض لأبرز عينات المقرنسات الحمادية

.٢

النموذج الأول: وَيُعْرَفُ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْمَقْرَنَسَاتِ لَدِيِّ أَهْلِ الْفَنِّ الْمَعْمَارِيِّ بِـ«الْدَّلِيلَاتِ الْمُتَوَازِيَّةِ السَّطْوَرِ» (parallélépipèdes) (شَكْل٥). قَوَامُهَا قِطْعَةٌ فَخَارِيَّةٌ مَسْتَطِيلَةُ الشَّكْلِ، مُرْدَانَةٌ بِأَخْادِيدِ جَانِبِيَّةٍ مُثَلَّثَةٌ (شَكْل٥ بِ)، إِضَافَةً إِلَى تَجْوِيفٍ نَصْفِ كَروِيٍّ صَغِيرٍ، يُشْغِلُ مَرْكَزَ قَاعِها السَّفْلِيِّ، الْمُتَدَلِّي فِي فَضَاءِ الْمَبْنِيِّ (شَكْل٥ جِ). حِيَّتْ نَجَدُهَا جُمَعَةً فِي هَيَّةِ هَرْمٍ مُدَرِّجٍ مَقْلُوبٍ لِرَأْسِهِ نَحْوَ الْأَسْفَلِ (شَكْل٥ أِ)، وَهُوَ مُكَوَّنٌ مِنْ أَرْبَعَةِ مَسْتَوَيَّاتٍ مُتَطَابِقَةٍ، أَعْلَاهَا مَكْوُنٌ مِنْ أَرْبَعَ مَوْلِحٍ بَيْنِ الْجَدْرَانِ، وَبَيْنِ بَعْضِهَا الْبَعْضِ مِنْ غَيْرِ طَلَاءٍ (شَكْل٥ بِ). أَيْ بِشَكْلِهِ الطَّبِيعِيِّ (اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ الْقَرْمِيِّيِّ). كَمَا لَا يَفُوتُنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ التَّذَكِيرُ بِأَنَّ أَبْعَادَ هَذِهِ الْقِطْعَةِ الْمُتَشَابِهَةِ مُتَسَاوِيَّةٌ، حِيَّثُ طَوْلُ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا ١٧٤ مَلِمٌ، وَعَرَضُهَا ٤٥ مَلِمٌ، مَمَّا يُوَحِّي لِلَّدَارِسِ أَنَّ طَرِيقَةَ تَشْكِيلِ هَذِهِ الْآخِيرَةِ، قَدْ كَانَتْ بِالْقُولَبَةِ عَلَى مَسْتَوَيَّاتٍ مُتَقَدِّمَةٍ (وَرْشَة)، وَلَيْسَ التَّشْكِيلُ الْيَدِيُّوِيُّ كَمَا قَدْ يَتَبَادرُ إِلَى ذَهْنِ الْبَعْضِ. فِيهَا يُقْدَرُ عَرَضُ الْأَنْدُودُ الْزَّخْرُفِيِّ الَّذِي يَشْقَّهَا بِ١٨ مَلِمٌ (شَكْل٥ بِ)،

L. Golvin, «Fouille archéologique à la Qal'â de Beni»^{٢٢}

Hammad».

L. Golvin, «Note sur quelques fragments»^{٢٠}

٢١

L. Golvin, «Les plafonds à Muqarnas».^{٢٣}L. Golvin, *Le Maghreb central à l'époque des Zirides*.L. Golvin et al., *Le Maghreb médiéval*, Edi-sud, Aix-en-

Recherches d'archéologie et d'histoire, Arts et métiers

٢٤

Provence, 1991, p. 264.

graphiques, Paris, 1957, p. 203.

١٤٢

و قطرَ قُرْ قاعدتها الظاهرة من الأسفل في هيئة رؤوس أربعة سِهام متحدة رأسياً، نتيجة وصول حدود الأخدود الجانبي إليها بنحو ٢٠ ملم (شكل ٥ ج). أما ماذة لصق هذه القطع بعضها بعضاً فهى مونة الجحش المحلية، سِمة عيائِر المناطق السهبية، والصحراوية الحارة، شأن القلعة وغيرها إذ تم العثور عليها بأعدادٍ هائلةٍ من طرف اللواء دو بيل سنة ١٩٠٨ م بقصر الأمراء (شكل ٢ وشكل ٥) في بادئ الأمر، قبل أن يتولى العثور عليها في بقية المباني القلعية الأخرى بكميات وافرة في غضون الأبحاث الأثرية اللاحقة، المقاومة من قبل جولفان والباحث الجزائري بوروبيه رشيد عام ١٩٦٨ م.

وإذا كان الباحث چورچ مارسيه يرى بأنّها كانت تُشكّل، إماً أشرطَة زخرفيةً مستمرةً، أو متقطعةً على مستوى النهاية العلوية للجدران من الداخل ومن الخارج على حد سواء؛ وأنّ زخارف مماثلة لها قد عُرفت بكنيسة حلّيبة، الواقعة على أحدِي ضفتَي نهر الفرات؛ وأخرى بتيجان جامع مدينة إصفهان الإيرانية^{٢٥}. فإنَّ الدّارس لا يُشاطره الرأي كله بالنظر إلى حجمها، وطبيعة المواد الأولية المتّخذة منها، ودون الأخذ بعين الاعتبار الفارق الزمني بين هذه المعلم المذكورة. ويرجع بشأنها فرضية استخدامها في تنمية الواجهات الداخلية للمباني المفتوحة على أفقية مركبة، ولعلَّ ما يُدعم صحة هذا الافتراض هو العثور على بقايا أنواع أخرى من المقرنسات أكثر جمالاً، وأقلّ خشونة من هذه الأخيرة، أضعف إلى ذلك الطبيعة العسكرية لمدينة القلعة، مما يجعلها بلا ريب مهملاً التّنميَّ من الخارج في مقابل الحرس على تحصينها المنبع.

أما عن مسألة تأريخها، فيمكن إعادتها إلى السنوات الأولى من بناء مدينة القلعة من غير تَخَرُّج لاعتبارين أساسيين: أولهما كون القصر الذي وُجدت به هو أقدم قصور قلعة بنى حمّاد. والذى قد يُعزى تأسيسه إلى مؤسس الدولة حمّاد بن بلکين على حد روایات الكتب التاريخية، والجغرافية، والأدبية، المتحدثة عن القلعة. وثانيهما بساطة هذه المقرنسات كلَّ التّواحي الفنية والزخرفية، مقارنة مع بقية التّهاذج الأخرى. وهي بذلك تُعتبر أقدم وأبسط نموذج عرفه الحمّاديون في مجال التّنميَّ بعنصر المقرنسات في عمارتهم القلعية.

النموذج الثاني: وتمثله عيّنة وحيدة، منقورة في الحجر الصّلب (شكل ٦). قوامها كتلة حجرية (monolythe) نصف كروية الشّكل، أبعادها ١٠٠ × ٦٠ سم^{٢٦}. مُزدانة البطن بثلاثة صفوف متطابقة من التجاويف الهندسية، المنحوتة على هيئة «خلية النّحل»؛ حيث تم العثور عليها من طرف اللواء دو بيل أيضاً في السّفح الشرقي، الذي يُطلُّ منه قصر المnar على وادي فرج السّحق. وقد اعتبرها الباحث چورچ مارسيه، منذ ساعة اكتشافها، كأقدم نموذج للمقرنسات في بلاد المغرب الإسلامي على الإطلاق، حيث يقول بشأنها ما نصّه بالحرف الواحد: «تشَكّل الكتلة الحجرية المنحوتة على هيئة «خلية نحل»، أقدم نموذج للمقرنسات المغربية ...، ومن الإنصاف الاعتراف بذلك»^{٢٧}. كما قال في مناسبة سابقة: «وجود عيّنات تُذكّرنا بخلايا النّحل في العمارة الحمّادية، مصدر استلهام المقرنسات، هو دليل كافٌ على وجود هذه الأخيرة، بل هو تأكيد لها»^{٢٨}. وهو فعلًا ما أكدته أبحاث جولفان لاحقًا.

L. de Beylie, *La kalaa des Beni-Hammad*, p. 39. *id.*, «Une capitale berbère au XI^e siècle», *JournAs* 12, 1909, p. 198.

G. Marçais, *L'architecture musulmane*, p. 102.

G. Marçais, *Poteries et faïences*, p. 12.

G. Marçais, *L'architecture musulmane*, p. 103. وهى العيّنة التي سبقت الإشارة إلى اختلافها من «المتحف الوطني للآثار

القديمة» بالجزائر العاصمة، ولم يعد لدينا من حولها دليل، سوى الصورة

الفوتوغرافية الرّديئة التي التقظها لها اللواء دو بيل غداً اكتشافها عام ١٩٠٨، وكذا التّفريغ الذي خصّها به مارسيه.

وإذا كنّا لا نعرف تاريخ هذه العيّنة على وجه الدّقة، فإنّ مكان العثور عليها بسفح قصر المنار، وكذلك طبيعة شكلها الكروي، يؤكّدان أنها قُبّية مقرنسة؛ كما يحتملنا من جانب آخر على الاعتقاد بأنّها أحدث زماناً من مقرنسات قصر الأمراء، ومقرنسات قصر السلام، التي سيأتي الحديث عنها بعد قليل بالنظر إلى الظهور المتأخر لهذا النوع من المقرنسات في تنمية مبانى العمارة الإسلامية، حيث يدو للعيان الوسط السورى - التركى أخشب بقعة له إبان القرن السابع المجرى، المواقف للثالث عشر الميلادى^{٣٠}. وبما أنّ هذا القصر قد عُرِفَ تعديلات أيام المنصور بن علناس آخر الأمراء الحماديين المقيمين في مدينة القلعة، والذى أقام فيه على وجه الدّقة، والتّحديد في الفترة المتقدّة بين ٤٨١-٤٨٣ هـ / ١٠٨٨-١٠٩٠ م، قبل أن يتقلّى إلى مدينة بجایة، ثالث وأخر العواصم الحماديه؛ فإننا نرجّح فرضية نحتها في غضون هذه التعديلات، والترميمات الأخيرة المدخلة على قصر المنار.

ولكن ما هو جدير بالذكر في هذا المقام إنه حتّى وإن كانت هذه العيّنة ذات القيمة الأثرية البالغة في ذيل ترتيب التسلسل الرّمني للمقرنسات الحماديه، فإنّها في واقع الأمر لا ينقص من أهميتها التاريخية شيء. طالما أنّ جميع نماذج المقرنسات الحجرية سمّة المعالم السورى والتركى، تؤرّخ ما بين القرنين ١٣ و ١٤ م. والأهمّ من كلّ ذلك، أنها تكتسي مكانة خاصة فيها يتعلّق بتاريخ القبة الحجرية المقرنسة ببلاد المغرب، فهي على الأقلّ أقدم نموذج لها بالمنطقة، إن لم نقل النموذج الوحيد المعروف لدينا حتّى الآن.

النموذج الثالث: بقايا المقرنسات المذكورة (الأشكال ٧ - ١٠)^{٣١}. التي تسبق تاريخياً جميع القباب المقرنسة الواقعة في المعالم الأثرية بالعراق^{٣٢}، والشام، وتركيا ومصر، وكافة منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط طبعاً. ولا يسبقهما في ذلك غير المعالم الإيرانية، والروسية^{٣٣}. قوامها قطع جصيّة متجانسة تقنياً، ومتنوّعة شكلاً، تبعاً لتنوع المكان الذي كانت تشغله في تركيبة أجزاء القبة المقرنسة. فضلاً عن خلوّها من أيّة زخرفة إضافية تشغل سطوحها الخارجية على خلاف عيّنتا النموذج التالى، كما سيأتي التفصيل لاحقاً عبر القطع الأربع المتنقّلة لها في هذا المقام من جملة قطعها الملتقطة شهر يونيو عام ١٩٥٦ م من وسط إحدى قاعات قصر السلام (شكل ٣).

القطعة الأولى: وهي عبارة عن كتلة جصيّة ضخمة (شكل ٧)، منحرفة الشّكل تقريباً، حيث يُقدّر طولها الإجمالي ٢٦ سم، وارتفاعها بنحو ١٨ سم، مشغولة البدن، الذي يُقدّر عرضه بـ ١٨ سم هو الآخر بحنيّة صغيرة برميلية الشّكل، يتوجّها عقد نصف دائري، والتي تقدّر أبعادها بـ ١٥ × ١٠ سم، وعلى جانبيها، يقع في كلّ واحد منها، تدرّيج قائم الزاوية، أبعاده ٤٠ × ٤٠ ملم. إذ يمتدان رأسياً على حسب امتداد الحنية الآنفة الذكر، ويستندان في الأسفل إلى قاعدة ربع دائريّة الشّكل؛ ومنهما يتفرّع منبّت حنيتين متّاظرتين تماماً على ما يبدو.

^{٣١} وعيّنتا هذا النموذج في غاية الأهميّة الأثرية، ولاسيما في ما يتعلّق بالدراسات المستقبلية حول نشأة وتطور القبة المقرنسة في العمارة الإسلامية على وجه الخصوص.

^{٣٢} حول تاريخ القباب المقرنسة بالعراق، انظر: الحدثى عطاء وهناء عبد الحالى، القباب المخروطية في العراق، وزارة الإعلام، مديرية الآثار العامة، بغداد، ١٩٧٤ م.

^{٣٣} شرقى الرزقى، «تطور المقرنسات»، ص ٤٦-٥٠. A.Ö. Dekan, *Osmali ôncesianad olu türk mimarisinde mukarashi portal ortuları*, Istanbul, 1974.

٣٠ حول مقرنسات سوريا وتاريخها انظر:

M. Écochard, *Filiation de monuments grecs*, p. 65-110.

أما عن مقرنسات تركيا فأنظر:

J. Rosenthal, *Pendentifs, trompes et stalactites*; id., *L'origine des stalactites de l'architecture orientale*, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1938.

ففي الوقت الذي نجد فيه التّدريج الأيمن منها مسحوباً رأسياً على مستوى منبته، وتفرّعه من جانب الحنية المركزية نتيجة الأضرار الجسيمة التي لحقت به جراء كسر اعتراه على هذا المستوى، نجد التّدريج الأيسر المقابل له في الجهة المعاوّية، مُرْوَداً بِمُنبتٍ حنية صغيرة على نمط الحنية المركزية الآنفة الذكر، عمقها ٢٠ ملـم؛ إلا أنّ ارتفاعها غير تام بفعل الكسر المحوري الذي لحق بها على مقربة من مفتاح العقد التّصف الدائري، المتوج لها. وهو ارتفاع لن يكون أطول، ولا أقصر من ارتفاع الحنية المركزية من دون شكّ، باعتبارهما متجاورين أفقياً في ذات الطّبقة.

وهذا كفيل في واقع الأمر بإعطاء تصوّراً سليماً لهيئه البيت المقابل له في الجهة اليمني من البيت المركزي الأنف الذكر والذى سيكون، بكل تأكيد، مماثلاً له في أدق التفاصيل. وقد وُفقَ الباحث مارسيه إلى حدّ بعيد في إعادة تحثيل شكله، وتصميمه العام (شكل ٧ ب). حيث يرجح وظيفة شغله الصدر الأعلى من حنية رُكينة على حدّ ما اسفرت عليه أوجه المقاربة بينه وبين مقرنسات الحنيات الرُّكينة بكيسة بلاطين التورماندية (شكل ٧ ج) بمدينة بالرم الصقلية.

القطعة الثانية: وهي عبارة عن كُتلة يُقدر ارتفاعها بـ ٢٦ سم (شكل ٨)، قوامها كما تبدو من منظور جانبي (شكل ٨ أ - ب)، عَصَبٌ مركزي بارز، حيث يُقدر عرضه بـ ٥ سم، وعمقه نحو الداخـل بـ ٤ سم. وهو يمتـد رأسياً من الأسفل إلى الأعلى، كما ينتهي بانحناء خفيف نحو الخارج على هيئة كابولي. وقد تمكـن الباحث جولشان من تصوّر هيئته الكاملة (شكل ٨ ج - د)، فضلاً عن تحديد وظيفته بالمجمع الرّخـفي، المتمـيـل إليه عن طريق المقارنة بينه وبين أشكال مقرنسات كيسة بلاطين المذكورة أعلاه؛ إذ بيـنـت هذه المقاربة الموقـفة من لدنه على شغل الرـكن الأيسر في الطـبـقة الثانية نحو الأسفل من موضع القطعة الأولى في هذا النموذج (شكل ٨ ه).

القطعة الثالثة: قوامها كتلة جصّية ضخمة (شكل ٩)، تتخلـلـها حـنية مركـزـية نـصـفـ كـروـية الشـكـلـ. إذ يُقدر عـرضـها بـ ١٠ سم، وعمـقـها بـ ١٥ سم. يُؤـطـرـها على الجـانـبـينـ بـسـطـة مـدـرـجـةـ في هـيـئـة درـجـ-كتـفـ (شكل ٩). أـيـ بـانـفـراجـ زـاوـيـةـ مـفـتوـحةـ مـقـدـارـهاـ قـائـمـةـ وـنـصـفـ ١٣٥°ـ،ـ كـمـاـ تـبـلـغـ مـسـافـةـ الـمـحـورـ الذـيـ يـرـبـطـ بـيـنـ نـهـاـيـيـ هـاـتـيـنـ الـبـسـطـيـنـ الجـانـبـيـنـ ١٨ـ سـمـ،ـ مـُـشـكـلـةـ بـذـلـكـ نـمـوذـجـ مـُـصـغـرـ لـنـمـطـ الـمـحـارـيبـ الـمـغـرـبـيـةـ الـمـتـعـدـدـ الـأـضـلـاعـ.ـ وـهـوـ مـاـ يـؤـكـدـ بـوـضـوحـ عـلـىـ أـنـ الـعـيـنـةـ مـجـرـدـ رـبعـ كـتـلـةـ مـنـ قـطـعـةـ مـُـثـمـنـةـ الـأـضـلـاعـ.ـ حـيـثـ كـلـ رـبـعـ يـقـابـلـ،ـ وـيـمـاثـلـ بـقـيـةـ الـأـربـاعـ الـأـخـرـىـ فـيـ كـلـ شـيـءـ،ـ كـمـاـ يـوـضـحـهـ اـجـهـادـ الـبـاحـثـ جـوـلـشـانـ (ـشـكـلـ ٩ـ بـ)،ـ وـالـذـيـ يـبـدوـ مـنـ خـالـلـهـ أـنـ هـذـهـ الـقـطـعـةـ قـدـ كـانـتـ تـشـكـلـ مـشـمـنـاـ قـطـرـهـ ٣٧ـ سـمـ،ـ مـشـغـلـاـ بـأـرـبـعـ حـنـيـاتـ جـانـبـيـةـ مـتـمـاثـلـةـ تـمـاـمـاـ،ـ تـتـنـاوـبـ بـاـنـظـاطـمـ مـعـ أـرـبـعـ مـسـاطـبـ مـدـرـجـةـ،ـ وـهـوـ بـكـلـ تـأـكـيدـ شـكـلـ الـقـطـعـةـ،ـ الـمـعـرـفـةـ لـدـىـ الـحـرـفـيـنـ الـمـغـارـبـيـةـ بـالـقـبـعـةـ،ـ أـوـ الشـاشـيـةـ حـسـبـ تـعـبـيرـهـمـ الـعـاـقـمـيـ فـيـ الصـنـاعـاتـ الـخـشـبـيـةـ لـلـمـقـرـنـسـاتـ،ـ وـهـيـ الـقـطـعـةـ الـتـيـ تـتـوـجـ نـسـيجـ الـقـبـةـ الـمـقـرـنـسـةـ،ـ أـوـ الطـاـسـةـ عـلـىـ حـدـ تـعـبـيرـ أـهـلـ حـرـفـ الـجـصـ بـالـمـغـرـبـ الـأـقـصـىـ فـيـ أـيـامـاـ هـذـهـ.

القطعة الرابعة: قوامها قطعة مشطورة إلى نصفين أفقياً (شكل ١٠ أ)، حيث تُقدر أبعادها التّامة عقب عملية التّجميـعـ (ـشـكـلـ ١٠ـ بـ)ـ كـالـآـتـيـ:ـ ٣٠ـ سـمـ فـيـهـاـ يـخـصـ الـارـفـاعـ،ـ وـ١٢ـ ×ـ ١٢ـ سـمـ فـيـهـاـ يـتـعلـقـ بـقـاعـدـتهاـ الـعـلـىـ،ـ وـ٤ـ ×ـ ٤ـ سـمـ فـيـهـاـ يـخـصـ الـقـاعـدـةـ السـفـلـىـ.ـ إـذـ تـبـدوـ لـنـاـ فـيـ هـيـئـةـ هـرـمـ مـقـلـوبـ مـقـطـوـعـ النـهـاـيـةـ الـمـدـيـةـ.ـ مـنـسـدـلـ مـنـ الـأـعـلـىـ فـيـ اـجـاهـ الـأـسـفـلـ بـاـنـحـصـارـ طـفـيفـ مـنـتـظـمـ عـبـرـ فـضـاءـ شـاغـرـ إـلـىـ أـنـ يـقـفـ بـهـ الـمـقـامـ عـنـدـ تـشـكـيلـ حـلـمـةـ صـغـيرـةـ مـرـبـعـةـ الشـكـلـ،ـ أـبـعـادـ أـضـلـاعـهـ كـمـاـ أـسـلـفـنـاـ

٤ سم. وعلى أحد جوانب هذه القطعة تلتصق زائدة مُضافة تربطها ببقية النسيج المقرنس، والتي من المؤكّد أنها كانت تشغّل فيه دور متوازيات السطوح المتدرّلة على النمط المُبين في (شكل ١٠ ج).

إن تاريخ قطع هذه العينية الشّمينة لأنموذج القبة المترنّسة المبكرة في العمارة الإسلامية، جدير بأن نعيده إلى المرحلة الثانية من عمر الدولة الحمادية؛ أي مرحلة الاستقرار السياسي، وبداية التعمير الحضاري، والانبعاث الاقتصادي، والازدهار الثقافي بمدينة القلعة، تلك المرحلة التي يمكن ضبطها على وجه التقرير بالفترة المتقدمة بين ٤٤٧-٤٨١ هـ / ١٠٥٥-١٠٨٨ م. أو بالأحرى أيام الأمير الناصر بن علناس ٤٥٤ - ٤٨١ هـ / ١٠٦٢ - ١٠٨٨ م، خامس الأمراء الحماديين، وأخر من أقام هناك بصورة متواصلة من جملة الأمراء التسعة، المتعاقبين على عرش هذه الدولة. والذي لم يكتف بما شيد من مآثر حضارية بالقلعة، كقصر السلام هذا فحسب، وإنما تعداه إلى بناء معالم مدينة بجایة التي أسمّاها بـ الناصـة، كعاصمة جديدة له وخلفه.^{٣٤}

وبهذا نكون قد أعدنا مراجعة ذلك التاريخ، الذي افترضه جولقان بنهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وبالضبط أيام الأمير المنصور بن علناس ٤٨١-٤٩٨ هـ / ١٠٨٨-١١٠٧ م^{٣٥}. دون أن يأخذ في حسيانه تلك الفروق التقنية الشّاسعة، الفاصلة بين عينات المقرنسات الحمادية، واختلاف مواضع التقاطها من خرائب القلعة. وهو ما يوحى للعيان بأنّها غير مُتعاصمة إطلاقاً.

وعليه فإنّ التّارِيخ الذي تقدم به جولقان، هو تأريخ جزئيٌّ، لا ينطبق إلَّا على مقرنِسات قصر المَنَار الحصيّة (النموذج التالى) باعتبار أنّ قطع هذا الأخير هى أجمل وأتقن عينات المقرنِسات الحمادية على الإطلاق؛ أضف إلى ذلك التقاطها من أحدث، وأفخم قصر بمدينة القلعة. وهو ما يؤكّد بلا ريب تأخرها الزّمني عن العينات السالفة الذكر.

النموذج الرابع: وقوامه قطعتين كثیرتا الشّبّه بقطع النموذج الثالث (شكل ٧)، إلّا أنَّ هذه الأخيرة (شكل ١١) أكثر من سابقتها اتقاناً، وتفنّناً من حيث التّصميم العام، وحذاقة الرسوم المائية التي تشغّل بطونها، وقد تمّ التقاطها عام ١٩٦٢ م بالقرب من المدخل الرئيسي المفضى إلى قصر المنار من الجهة الجنوبيّة (شكل ٤). وهمما الآن معروضتان بمتحف سرتا بمدينة قسنطينة (شكل ١) في إحدى واجهات قاعة قلعة بنى حمّاد. حيث يقدّر ارتفاع القطعة التّامة منها (شكل ١١) بـ ٣٠ سم، وعمقها الموغّل في الجدران، مُتذبذباً بين ١٤، ٥ سم على مستوى قاعدة البيت، و١٨، ٥ سم على مستوى القمة. إذ تبدو هذه الكتلة الجصيّة في هيئة شبه منحرف، منتصب رأسياً على قاعدة منتظمة الاستواء، يتخلّلها بيتاً مركزيّاً، برميلي الشّكل، ارتفاعه (٣٠) سم، وعرضه (١٥، ٢) سم، لكنَّ أبرز ما يميّز شكل هذه القطعة عن أشكال عينات النموذج الثالث هو الدّاوية القائمة (٩٠°) المشكّلة علّا، مستوى، قمة هذا البيت، أي، مفتاح العقد.

أما بخصوص زخرفتها فنجدها نباتية خالصة. قوامها الورقة بسيطة تشغّل القسم السفلي من بطن ذلك البيت، بداخلها زهرة محوّرة على هيئة كزانة صنوبر، ويعمل هذه الورقة السفلية بدن مغزلي الشكل من أغصان النبات، تتفرّع من جهةٍ فيه الخارج حيثين ورقيات صغيرة مُكورة لتشكل هذا المجمع الزخرفي في نهاية المطاف ما يشبه شكل المزهرية المنكسة على فوتها.

^{٣٤} ابن الخطيب (لسان الدين)، أعمال الأعلام، الجزء الثالث، تحقيق وتعليق، ^{٣٥} أحمد مختار العبادي، ومحمّد إبراهيم الكتاني، نشر دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، ١٩٧٤، ص ٩٧.

هذا فيما يخصّ عناصر الموضوع الزّخرفي. أمّا فيما يتعلّق بالألوان الموّففة فيه، فنجد ثلاثة أصباغ رئيسية: أوّلها اللون الأبيض الناصع المستخدّ كخلفية لتنفيذ الرّسم. وهو بذلك يشغل كامل سطح القطعة بالإضافة إلى تلوين بِتَلاتِ الزّهرة التي تتوسّط اللوزة. واللّون البُني الداكن لطلاء بدن المزهريّة بقسميّها العلوي والسفلي؛ وأخيراً اللون الأزرق الكوبيتي المستخدم في تنفيذ الخطوط العامة لأشكال عناصر موضوع الرّسم.

وأمّا بخصوص القطعة الثانية من هذا النموذج (شكل ١١ بـ)، فهي غير مكتملة، والراجح أنّها كانت تشكّل الربع الأيسر العلوي من بيت مُمايل لشكل البيت السابق. لاسيما وأنّ هذه القطعة مزданة بأشكال زخرفية مطابقة لسابقتها، وبذات الألوان المذكورة آفّا. وهو ما لا يدع أدنى شكّ في انتهاء هاتين القطعتين إلى هيكل مقرنس واحد. والذّي نُرجع بشأنه فرضية الحنية الرّكنية لثلاث اعتبارات رئيسية: أوّلها التّقاط هذه القطع من إحدى الزّوايا الدّاخلية، الموالية للمدخل الرّئيسي؛ ثانيها قِلة عددها مقارنة بعدد القطع الملتقطة من وسط قاعة قصر السلام. ثالثها وهو بقاء آثار الحنيات الرّكنية لقبو متّقاط الأضلاع، طول أضلاع رقبته ٢٠ م كان يُتوّج هذا المدخل البارز نحو الخارج، سِمة مداخل العمارة المغربية في ذلك الوقت. حيث تبدو بقايا تخطيط المقرنسات التي كانت تشغّل إحدى حنياته الرّكنية الأربع على ارتفاع من الأرض، مقداره أربعة أمتار على حدّ شهادة الباحث جولقان^{٣٦}.

وهكذا، ومن خلال استعراض مختلف نماذج عينات المقرنسات الحمّادية الملتقطة من خرائب القلعة، يتّضح جلياً بأنّ جميع أنواع المقرنسات الإسلامية قد جُرّبت، واستخدمت في مبانِ القلعة بنجاح، وعبر مراحل زمنية متتالية، وليس متّعاصرة. وهو ما يفتّن، تقنياً قاطعاً فرضية المُقدّم المباشر للمقرنسات من بلاد العراق، مهد ميلادها الأوّل^{٣٧} إلى القلعة عن طريق استقدام فنان، أو ورشة حرفيّة متخصّصة من هناك لتزيين قصور الحمّاديين بالقلعة، باعتبار أنّ هذا العنصر لا نجده وقتها، لا في بلاد الشّام، ولا في مصر ولا ليبيا، ولا تونس. بقدر ما هو دليل دامغ على أنّ مدينة القلعة كانت فعلاً مركز إشعاع لإنتاج المقرنسات، وترويج تكنياتها نحو مختلف مناطق الغرب الإسلامي، كما سنحاول تبيان ذلك بشيء من التفصيل.

اتجاهات تعليميّة للمقرنسات الحمّادية في المنطقة

.٣

تعمّم استخدام المقرنسات عبر مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتوسّع مجال زخرفتها إلى شمل فضاء واسع من أجزاء العمارة الإسلامية خلال القرن ٦هـ/١٢م. ويبدأ في هذه المرحلة التّاريχية الهامة الشّرق الإيراني بالشرق، والقلعة الحمّادية بالغرب الأوسط كمركيز منظاريين إقليميّاً، حيث شاع من كلّ واحد منها شبكة إقليمية مُستقلّة بذاتها الفيّة والتّقنية عن بعضها البعض، إذا ما استثنينا جزيرة صقلية على العهد النّورماندي التي استطاعت المزج بين ثقافة المركزين في انسجام محكم، رغم التّباين الواضح بين تركيبة المقرنسات المغربية، ونظيرتها المشرقيّة.

^{٣٧} كامل حيدر، الخصائص التخطيطية.

L. Golvin, «Les plafonds», p. 64-65. ^{٣٦}

إذ يرجع الفضل في نقل وتوزيع هذا العنصر الزخرفي بمنطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط إلى مدينة القلعة الحمّادية^{٣٨}؛ حيث اتخذ منها هذا التأثير الفني التجاھين متعامدين تقريرًا. أوّلها في الاتجاه الشّمالي الشرقي، مُستهدفًا بذلك جزيرة صقلية الإيطالية بصفة خاصة، وقد كان ذلك في المرحلة الثانية من مراحل تطور الدولة الحمّادية (٤٤١-٤٨١هـ / ١٠٨٨-١٠٥٥م) حيث كان لهذه الدولة هناك سمعة طيبة بكمال المنطقة؛ وعلى مختلف الأصعدة: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية بما فيها مختلف الضّرورات الفنية. الشّيء الذي جعل منها قوّة محلية مُكتملة الجوانب، جديرة بالاحتساء والاقتداء.^{٣٩}.

فعادت إذن محل ثقة لبقية جيرانها على صفتى المتوسط، وتحفيزهم على الدخول معها في علاقات متينة في مختلف مجالات الحياة، كما يستشف ذلك بوضوح من العلاقات الشخصية الوطيدة التي كانت تربط بعض الأمراء الحمّاديين ببعض البابوات في إيطاليا، وفي مقدمتهم البابا جريجوار التاسع (١٠٧٣م-١٠٨٥م) الذي كانت تربطه علاقات صداقة وطيدة مع الأمير الحمّادي الناصر بن علناس، ناهيك عن بقية رجال السياسة، والاقتصاد، كما يدل على ذلك نصوص ووثائق تاريخية كثيرة معاصرة للحدث، أو قريبة منه زمانياً^{٤٠}.

أضف إلى ذلك بقية التأثيرات المعمارية الحمّادية المدنية، والدينية الأخرى على نظيرتها التورماندية بجزيرة صقلية خلال القرن (٦-١٢هـ)، إبان حكم الملك روجييه الثاني الذي حكم الجزيرة بين عام ١٠٥٤-١٠٩٥م؛ وجيمون الثاني (١١٥٤-١١٦١م) على وجه الخصوص^{٤١}؛ شأن قصر عزيزة، وقصر القبة، وكنيسة بلاتين. وهى جيّعاً معالم نورماندية، تبرز التأثير الفنى الحمّادى على مدينة بالرم فى أجل صوره، لاسيما على مستوى العناصر الإنسانية، والعناصر الزخرفية على وجه الخصوص.

هذا عن الوجهة الشّمالية الشرقية التي سلكتها المقرنستات الحمّادية، أمّا فيما يخص الوجهة الشّمالية الغربية فقد سلكت طريق البحر في اتجاه الأنجلوس، حيث وصلت إلى هناك بعض التأثيرات الفنية من القلعة الحمّادية، مقرونة ببعض التأثيرات القيروانية، المنطلقة بدورها من المغرب الأدنى (تونس). وقد شملت هناك كلّ من مدينة المرية الساحلية، ومدينة سرقسطة، إضافة إلى عاصمة الأنجلوس مدينة قرطبة، وذلك عبر مسلكين بحريين، أُسْتَحْدَثَا وقتها للربط بين المدن الساحلية الحمّادية، مثل مدينة عنابة، وبجاية، ودلس، والجزائر العاصمة بنظريتها في العدوة الأخرى. شأن ميناء دانية بجزر البالىار على سبيل المثال، لا التخصيص والحصر.

Ch. Feraud, «Histoire des villes de la province de Constantine: Sétif, Bordj Bou Arréridj, M'sila et Boussaâda», *Recueil de mémoires et de notices sur la société archéologique de la province de Constantine*, édition Constantine, Alger, Paris, 1871-1872 ; H. Saladin, «Rapport deuxième note sur les monuments arabes de la Qual'a des Beni Hamméd», *BACT*, Imprimerie nationale, Paris, 1905, p. 185-198.

^{٤١} عفيف البهنسى، الفن الإسلامي، دار الأطلس للدراسات، والتّرجمة، والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص ٢٧٤.

P.M. Basilio, *El arte hispano-musulman en su décoration géométrique, une teoria para un estilo*, Institut hispano-arabe de culture, Madrid, 1975, p. 152.

H. Terrasse, *La mosquée*, p. 32.

H. Derek and L. Golvin, *Islamic Architecture in the North of Africa*, Edited by Faber and Faber limited, London, 1976, p. 63.

^{٤٢} حول عمق العلاقات السياسية، والاقتصادية التي كانت تربط الحمّاديين بجيّانهم التورمانديين في صقلية، وجنوب إيطاليا أنظر: إسماعيل العربي، دولة بنى حاد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١.

ومن ثم فلا يُستبعد تأثير المقرنـسات الحـمـاديـة على أقدم نموذج للمقرنـسات الأندلسـية، والمـتمـثـلـ في الشـقـفـاتـ المـلـتـقطـةـ منـ خـرـائـبـ مدـيـنـةـ المـرـيـةـ، والـتـىـ كـانـتـ محلـ درـاسـةـ منـ طـرـفـ البـاحـثـ بوـتـشـ فـيـلاـ، مـنـذـ عـقـدـيـنـ وـنـيـفـ فيـ مـقـاـلـ «ـالـمـقرـنـسـاتـ فـيـ فـنـ الطـوـافـيـنـ بـالـمـرـيـةـ»^{٤٢}. ولـعـلـ ماـ يـعـزـزـ مـصـدـاقـيـةـ هـذـاـ الطـرـحـ، هوـ الـعـلـاقـاتـ الـوطـيـدةـ التـىـ كـانـتـ تـرـبـطـ الـحـمـادـيـيـنـ بـجـيـراـهـمـ هـنـاكـ، وـالـقـائـمـةـ عـلـىـ أـسـاسـ الـاحـتـارـامـ الـمـتـبـادـلـ، وـعـدـمـ التـدـخـلـ فـيـ شـؤـونـ الغـيرـ، وـإـتـرـازـ الـحـيـادـ الـمـطـلـقـ حـيـالـ فـنـتـهمـ الدـاخـلـيـةـ، وـقـصـرـ تـحـرـكـهاـ عـلـىـ الجـانـبـ الإـنـسـانـيـ فـحـسـبـ، كـإـيـوـاءـ، وـإـسـعـافـ الـأـنـدـلـسـيـيـنـ، وـأـمـرـائـهـمـ الـفـارـزـينـ عـامـ ٤٧٩ـ هـ / ١٠٨٦ـ مـ منـ بـطـشـ الـمـرـابـطـيـنـ. أـمـثـالـ الـأـمـيـرـ مـعـزـ الـدـوـلـةـ الـمـعـتـصـمـ بـصـمـادـحـ، حـاـكـمـ مـدـيـنـةـ الـمـرـيـةـ نـفـسـهـاـ، وـعـلـيـّـ بـنـ مـجـاهـدـ الـعـامـرـىـ، أـعـظـمـ رـبـابـةـ الـأـسـطـوـلـ الـإـسـلـامـيـ الـأـنـدـلـسـيـ قـبـلـ انـكـسـارـ شـوـكـتـهـ، وـكـذـاـ صـاحـبـ دـانـيـةـ. حـيـثـ اـقـطـعـ لـهـمـ الـحـمـادـيـيـوـنـ مـسـتـعـمـرـةـ صـغـيرـةـ عـلـىـ أـرـاضـيـهـمـ بـجـوـارـ مـيـنـاءـ دـلـسـ، وـأـحـواـزـ بـشـرقـ مـدـيـنـةـ الـجـزاـئـرـ الـعـاصـمـةـ^{٤٣}. زـيـادـةـ عـلـىـ اـمـتـياـزـهـمـ الـتـجـارـيـةـ السـتـابـقـةـ، الـمـحـفـوظـةـ لـهـمـ عـلـىـ مـسـتـوـىـ مـيـنـاءـ عـنـبـةـ بـأـقـصـيـ الـشـرـقـ الـجـزاـئـرـيـ، وـمـيـنـاءـ بـجـاـيـةـ بـمـنـطـقـةـ الـقـبـائـلـ الـكـبـرـىـ عـلـىـ وـجـهـ الـخـصـوصـ (ـشـكـلـ ١ـ).

فـاستـقـرـ بـمـوجـبـ ذـلـكـ عـنـصـرـ المـقـرـنـسـاتـ، وـتـغـلـغـلـتـ جـذـورـهـ هـنـاكـ حـتـىـ الـقـرـنـ السـابـقـ عـشـرـ الـمـيـلـادـيـ تـارـيخـ نـقـلـهـ إـلـىـ الـقـارـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ معـ حـمـلـةـ الـاسـتـعـمـارـ الـإـسـبـانـيـ عـلـىـ أـمـريـكـاـ الـلـاتـيـنـيـةـ^{٤٤}. وـمـنـذـ تـلـكـ الـلـحظـةـ بـالـذـاتـ عـادـ بـذـلـكـ المـقـرـنـسـ الـإـسـلـامـيـ شـامـاـلـاـ لـخـتـافـ قـارـائـ الـعـالـمـ دـوـنـ اـسـتـنـاءـ، وـهـيـ رـحـلـةـ طـوـيـلـةـ لـمـ يـلـغـهـاـ عـنـصـرـ زـخـرـفـ قـدـيمـ مـثـلـهـ فـيـ حدـودـ إـطـلـاعـنـاـ الـمـتواـضـعـ.

وـأـمـاـ عـنـ الـوـجـهـ الـثـالـثـ وـالـأـخـيـرـ، فـهـىـ وـجـهـةـ أـفـقـيـةـ غـرـبـيـةـ تـقـرـيـباـ، ضـمـمـتـ الـأـرـاضـىـ الـمـرـابـطـيـةـ فـيـ الـمـغـرـبـ الـأـقـصـىـ، مـرـوـرـاـ بـمـدـيـنـةـ تـلـمـسـانـ الـحـدـودـيـةـ التـىـ كـانـ يـطـيلـهـاـ التـقـوـذـ السـيـاسـيـ الـحـمـادـيـ تـارـةـ، وـالـتـقـوـذـ السـيـاسـيـ الـمـرـابـطـيـ تـارـةـ أـخـرـىـ عـلـىـ مـرـ عـقـودـ طـوـيـلـةـ مـنـ الـرـزـمـ. حـيـثـ نـشـهـدـ فـيـهاـ أـقـدـمـ نـمـوذـجـ لـبـقـايـاـ الـمـقـرـنـسـاتـ الـيـوـمـ بـمـسـجـدـهـاـ الـجـامـعـ، الـذـىـ اـبـتـاهـ الـمـرـابـطـونـ فـيـ غـضـونـ الـقـرـنـ ٦ـ هـ / ١٢ـ مـ. وـكـذـلـكـ بـجـامـعـ الـقـرـوـيـنـ بـمـدـيـنـةـ فـاسـ، وـقـبـةـ الـبـارـوـدـيـنـ بـمـرـاكـشـ. وـلـوـ أـنـ التـأـثـيرـ الـعـمـارـيـ الـحـمـادـيـ عـلـىـ نـظـيرـهـ الـمـرـابـطـيـ لـاـ يـقـتـصـرـ عـلـىـ عـنـصـرـ الـمـقـرـنـسـاتـ فـحـسـبـ، إـلـيـّـاـ سـيـقـتـهـ تـأـثـيرـاتـ فـنـيـةـ، وـمـعـمارـيـةـ مـنـ قـبـلـ، وـلـاـ سـيـيـاـ فـيـ مـجـالـ التـحـصـيـنـ الـعـسـكـرـيـ، كـمـ تـؤـكـدـ ذـلـكـ بـقـايـاـ الـعـائـرـ الـعـسـكـرـيـ الـمـرـابـطـيـ، الـمـشـيـلـةـ مـنـ طـرـفـ الـأـمـيـرـ يـوسـفـ بـنـ تـاشـفـيـنـ بـمـدـيـنـةـ مـرـاكـشـ. حـيـثـ تـبـدوـ تـصـامـيـمـهـاـ، وـأـسـالـيـبـ تـنـفيـذـهـاـ مـحاـكيـةـ لـمـاـ هـىـ عـلـيـهـ جـارـتـهـ فـيـ مـبـانـ الـقـلـعـةـ، وـمـدـيـنـةـ الـمـهـديـةـ الـزـيـرـيـةـ بـتـونـسـ، وـلـاـسـيـماـ عـلـىـ مـسـتـوـىـ مـدـخـلـهـاـ الـمـرـكـزـيـ الـمـرـدـانـ بـحـنـيـةـ مـجـوـفـةـ طـوـيـلـةـ، كـثـيـرـةـ الشـبـهـ بـحـنـيـاتـ وـاجـهـةـ قـصـرـ الـمـنـارـ، وـكـذـلـكـ الـوـاجـهـةـ الرـئـيـسـيـةـ مـنـ مـئـذـنـةـ الـجـامـعـ الـأـعـظـمـ بـالـقـلـعـةـ دـائـيـاـ^{٤٥}.

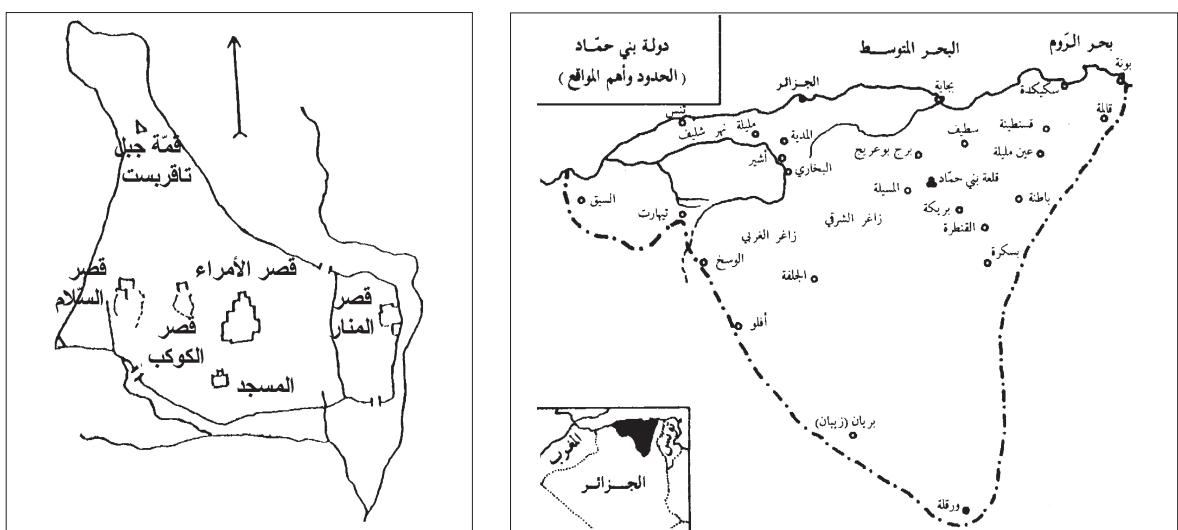
H. Terrasse, «L'art de l'Empire moravide, ses sources et ses origines», *StudIsl XIII*, Paris, 1955, p. 27-29. ^{٤٠} J. Boschevilia, «Mocarbes on el arte de la taifa de el meria», *CHI 8*, Granada, 1977, p. 139-160. ^{٤٢}

^{٤٣} شـرقـيـ الـرـزـقـيـ، (ـتـطـرـرـ الـمـقـرـنـسـاتـ)، صـ٩٠.

P. Fernandez, «Mukarnas», p. 500-501. ^{٤٤}

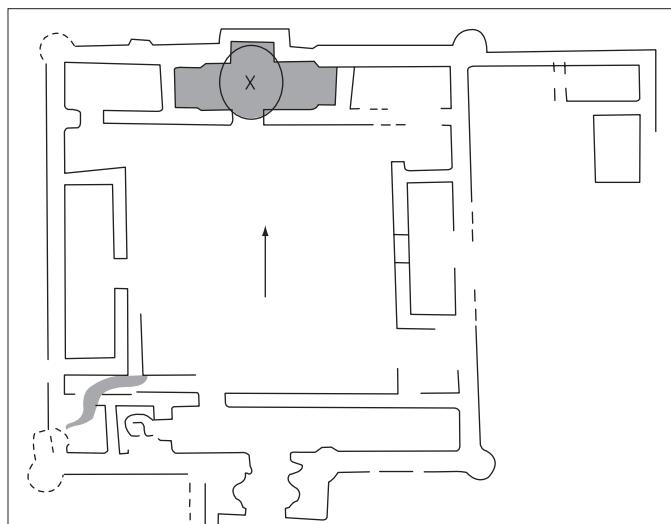
خاتمة

انطلاقاً من استعراض نماذج المقرنرات المتنوعة، التي عرفتها القلعة الحمادية أيام عزّها وازدهارها، والتي تبدو للناظر، وكأنّها متحفًا قائمًا بذاته لعرض المقرنرات الإسلامية، أو ورشة متخصصة في صنع المقرنرات بتصاميم متنوعة ساحرة؛ وبالنظر إلى طبيعة العلاقات الخارجية التي كانت تربط الدولة الحمادية بدول الجوار، القائمة على مبدأ الاحترام المتبادل، ورعاية المصالح المشتركة، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للغير إلا في حدود ما تسمح به الضرورة الإنسانية، وما انجرّ عليها من تحقيق للأمن والسلام والطمأنينة لشعوب المنطقة، وتفعيل حركة الاحتياك الثقافي والتّبادل الحضاري، وبعث التعاون الاقتصادي بينها وبين أقرانها الأقربين أولاً يحقّ لنا تعزيز ما تبنّاه الباحث أولج جربار الأنف الذكر، والذي مفاده أنّ القلعة الحمادية تشكّل بحق مركزاً إقليمياً لصناعة وترويج عنصر المقرنرات بالغرب الإسلامي على غرار مركز الشرق الإيراني؛ علّماً أنّ هذا الباحث لمّا أصدر حكمه، لم يكن متوفّراً على ما هو متوفّر لدينا اليوم من المعلومات العلمية الواضحة.

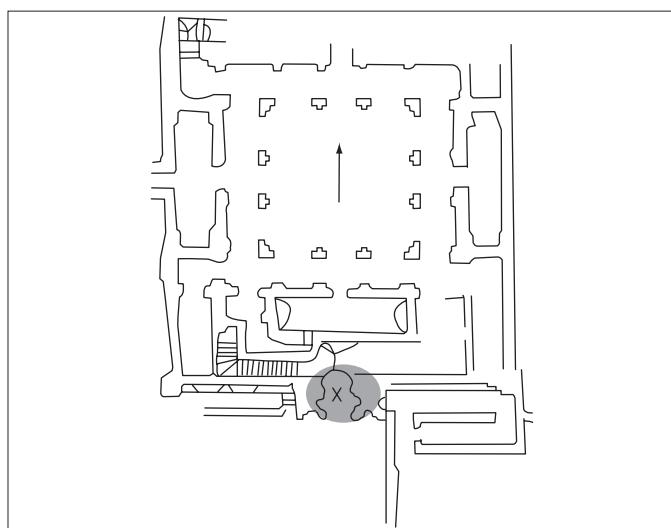


شكل ٢. المرافق العامة المكتشفة خلال أشغال السبر والتنقيب الأخرى بمدينة القلعة الحمادية (نقلًا عن لوسيان جولفان).

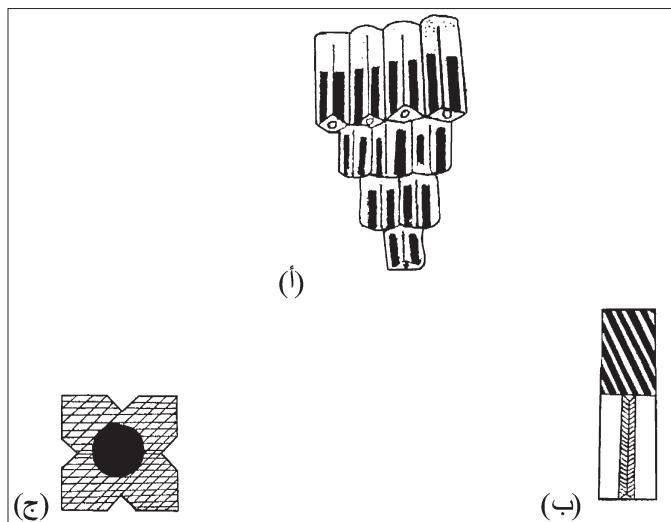
شكل ١. الحدود التقريبية للدولة الحمادية في مستهل منشأها (نقلًا عن عويس عبد الحليم).



شكل ٣. موضع التفاصيل المقرنسات الحمادية من قصر السلام
عام ١٩٥٦م (نقلًا عن لوسيان جولقان).

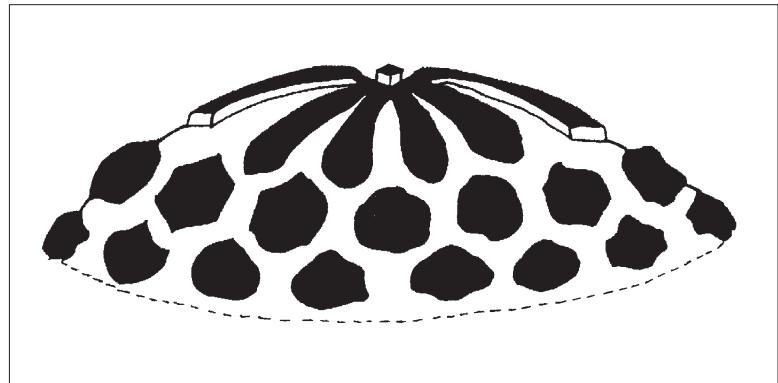


شكل ٤. موضع التفاصيل المقرنسات الحمادية من قصر المنار
عام ١٩٦٢م (نقلًا عن لوسيان جولقان).

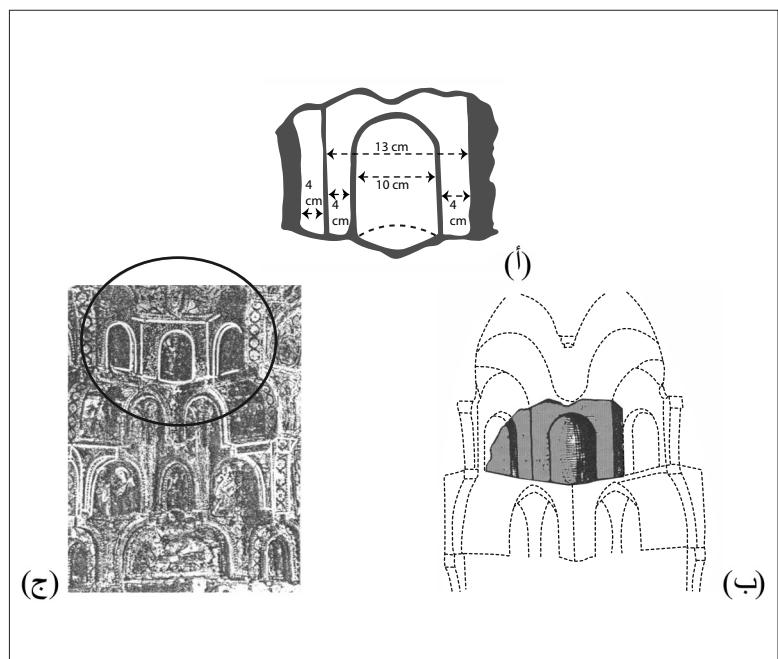


شكل ٥. الدليلات المتوازية السطحية التي تم العثور عليها
بالقلعة لأول مرة في حفريات اللواء ليون دو بيل عام
١٩٠٨ بقصر الأمراء قبل أن يتتأكد تعميم استخدامها
في باقي معالم القلعة الأخرى على حد تأكيد الحفريات
اللاحقة.

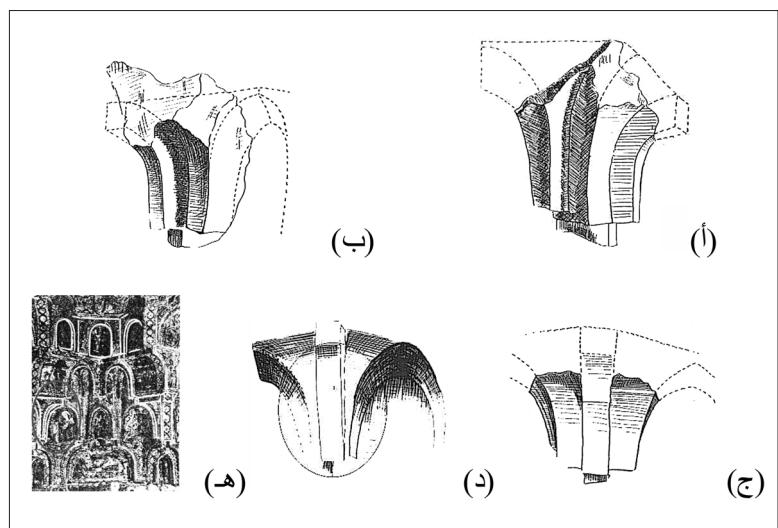
شكل ٦. تفريغ للنموذج الوحيد من المقرنسات الحجرية الحمادية الذى عثر عليه دوبيل عام ١٩٠٨ بسفح قصر المنار المطل على وادى فرج (نقاً عن چورج مارسيه).

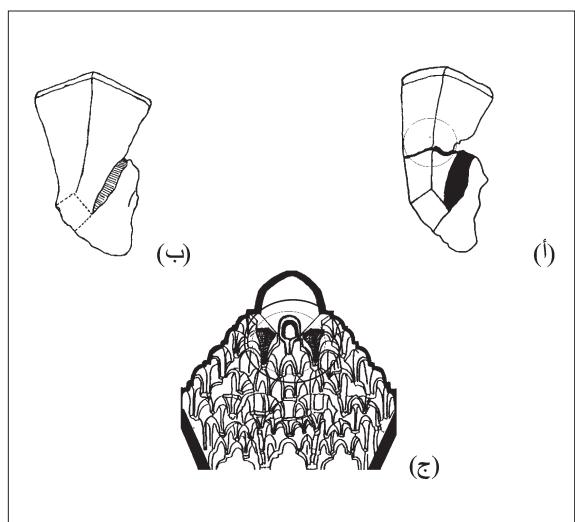


شكل ٧. قطعة أولى من بقايا المقرنسات الحمادية المكتشفة بقاعة قصر السلام عام ١٩٥٦ من طرف لوسيان جولقان فى محاولة لتصور موضعها الصحيح مقارنة مع مقرنسات حنية زخرفية مماثلة في كنيسة بلاطين النورماندية بمدينة بالرم.

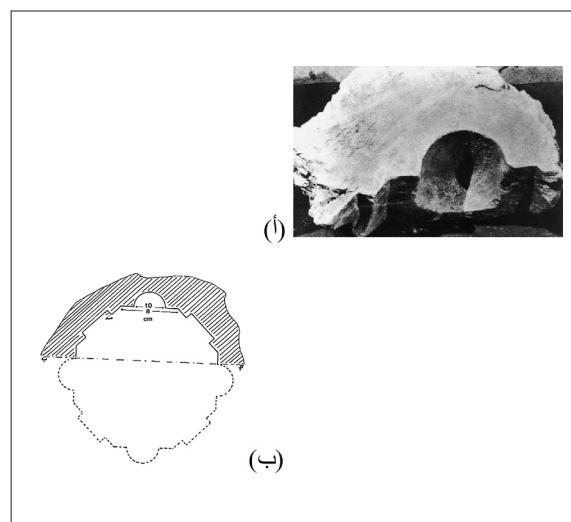


شكل ٨. قطعة ثانية من بقايا المقرنسات الحمادية المكتشفة بقاعة قصر السلام عام ١٩٥٦ من طرف لوسيان جولقان فى محاولة لتصور موضعها الصحيح مقارنة مع مقرنسات حنية زخرفية مماثلة في كنيسة بلاطين النورماندية بمدينة بالرم.

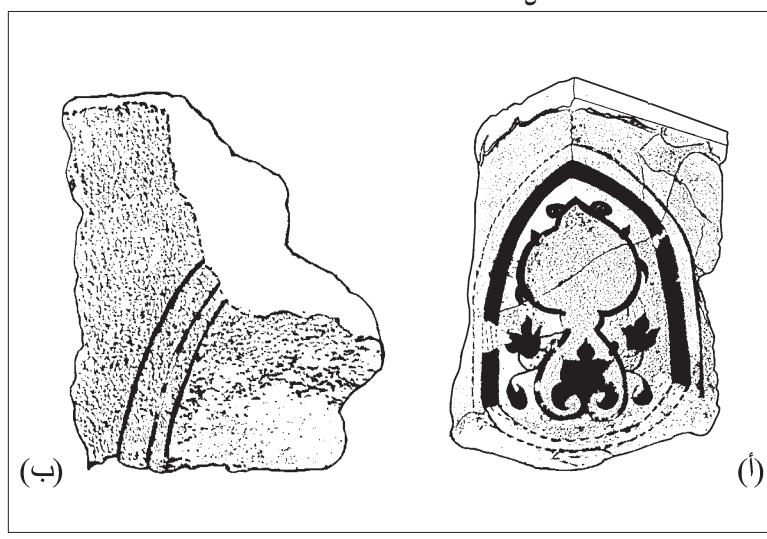




شكل .١٠



شكل .٩



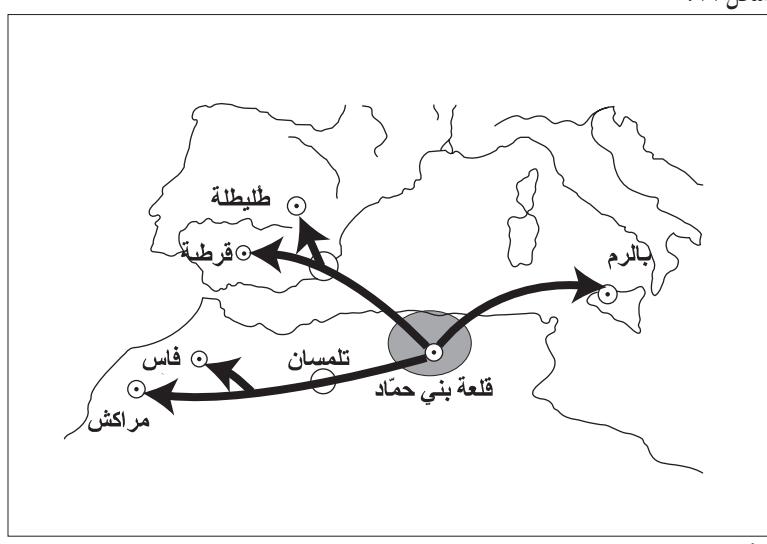
شكل .١١

شكل .٩. قطعة ثالثة من بقايا المقرنسات الحمادية المكتشفة بقاعة قصر السلام عام ١٩٥٦ م من طرف لوسيان جولفان تؤكد بوضوح أنها كانت تشغّل قطب القبة المقرنسة وهو ما يعرف لدى الحرفيين المغاربة اليوم بالشاشة.

شكل .١٠. قطعة رابعة من بقايا المقرنسات الحمادية المكتشفة بقاعة قصر السلام عام ١٩٥٦ م من طرف لوسيان جولفان في محاولة لتصوّر موضعها الصحيح مقارنة مع مقرنسات حنية زخرفية مماثلة في قصر عزيزة التورماندي بمدينة بالرم.

شكل .١١. تفريغ للقطعتين المقرنستين المكتشفتين بالمدخل الجنوبي من قصر المنار عام ١٩٦٢ م من طرف لوسيان جولفان والمعروضتين حالياً بإحدى وجهات قاعة قلعة بنى حماد بمتحف سيرتا بمدينة قسنطينة.

شكل .١٢. خريطة تقريرية توضح مسار توجه المقرنسات الحمادية بمنطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين ١١-١٢ هـ / ٥-٦ م.



شكل .١٢